في الحقل الثقافي

هنا، ولكي يكون تحديد المجال أكثر دقة، نشير إلى أن المعنى المقصود من كلمة ثقافة ليس المعنى الانتروبولوجي الذي يشير إلى حالة الخروج من الطبيعي، ولا المعنى الشامل المتماهي مع مفهوم الحضارة كما يرى البعض، إنما المقصود هو المعنى الذي يشير إلى المعارف الفكرية والآداب والفنون والعقائد، وما يحيط بها من حراك، بالمعنى الذي قصده د.نصر حامد أبو زيد.

لقد تماهت فنون الشعوب مع جوانب حياتها الأخرى. وقد جرى التعبير بواسطتها عن الهموم والمشكلات والنشاطات الحياتية كالاقتصاد وغيره. إن ما بقي معبراً عن حياة الشعوب القديمة ومصوراً لها هو مجموعة النقوش والتماثيل والرقصات والأغاني والأشعار والأساطير والعقائد، وهذه الفنون التعبيرية لم تحمل المعرفة فقط، إنما ضمنتها الأحاسيس الجمالية فلا أظن أن ملحمة جلجامش أو الرامايانا أو الإلياذة والأوديسة، تقرأ ككتاب للتاريخ يتضمن أخبار الأقدمين، ومن طمح إلى هذا الجانب الهام فيها فقط، فقد أخطأ. إنها شكل تعبيري جامع، يعمل على تقديم صورة عن شعب وحضارة، لكن ليس بالمعنى الفوتوغرافي إنما بالمعنى الفني.

واللافت للانتباه في هذا المجال، رحابة انتشار هذه الفنون، خاصة تلك الرموز التي تخص الآداب الدينية والتي تعد الأسطورة الحامل الأساسي الأول لها، سيبدو ذلك واضحاً من قراءة آداب ديانات الخصب والاطلاع على رموزها في منطقة الشرق الأوسط، بل امتداداً من حوض السند وصولاً إلى حيث استطاعت عقائد الخصب أن تجد من ينشرها، والتي وجدت آثارها في الآداب اليونانية والرومانية.

obeikandl.com

ولما كان هدف هذا البحث إثبات تلاقي الحضارات وحوارها عبر مجالات الحياة جميعاً، فإننا لن نعمل على التقصي بل على الإشارة للاستدلال على أن الحضارات لم تعجز، بل لم تتوقف عن الحوار.

الدراسات المقارنة:

فرضت الدراسات المقارنة نفسها لزيادة الاهتمام بتوضيح كثير من الأصول في مجال بعض فروع المعرفة، حيث كان يتوقف على هذه الدراسات تحديد انتماء الكثير من العناصر في ثقافة ما.

لقد شملت الدراسات المقارنة كثيراً من المجالات، منها علم الأديان المقارن والذي يهتم بانتقال العقدية أو العبادات والطقوس من دين إلى دين آخر. كما أن منها علم اللغات المقارن الذي ساعد في توضيح الأسر اللغوية وتفرعاتها وأصولها، كاللغات المعروفة بالسامية أو الهندوأوروبية، ويتم ذلك بالمقارنة بين أنظمة هذه اللغات ومفرداتها، وقد برز فرع من الدراسات الاستشراقية يهتم بذلك حيث تم تتبع الأسر اللغوية.

لكن أبرز حقول الدراسات المقارنة هي الأدب المقارن، الذي يدرس تأثير الآداب وتأثرها ببعضها متتبعاً العناصر التي يمكن الاعتماد عليها في معرفة هذه الآثار. وللأدب المقارن مؤتمراته العالمية وجمعياته التي يستعرض فيها بين الدارسين أهم ما وصلوا إليه بتحديد قنوات التواصل وجزئيات التأثر والتأثير، كما أن له متخصصيه الذين يعملون في كليات الآداب في الجامعات، والمعاهد العالية، وقد أدت حركة الترجمة التي سنتناولها قريباً، وتوسع هذه الحركة إلى مساعدة العاملين في مجال الأدب المقارن في تطوير أبحاثهم، يقول د. عبده عبود:((ومن خلال الترجمة الأدبية يستطيع الأدب المقارن أن يساهم في توضيح ما يسود بين الحضارات من علاقات. فحركة الترجمة الأدبية في الوطن العربي قد كانت على الدوام في مدها وجزرها ومراحلها المختلفة مرآة لعلاقات الحضارة العربية بالحضارات الأخرى))(1).

إن الترجمة الأدبية ودراسة صور الشعوب في آداب شعوب أخرى وأدب الرحلات والدراما التلفزيونية والسينمائية والخلفيات الفكرية، هي بعض ما يدرسه عبود ويشير إليه في حديثه عن الأدب وحوار الحضارات من خلال مناهج الأدب المقارن(2).

كما أنه يعتبر غوته مثالاً غربياً للاهتمام بالشرق و آدابه، فقد درس آداب الشرق (العربية والفارسية) وكتب عنها بكل حب وإعجاب. وروجه غارودي أيضاً يشير إلى دور غوته هذا بحيث بلور في عمله صيغة للأدب العالمي خاصة في تأثره بسعدي وحافظ الشيرازيين(4).

إن من شأن الدراسات المقارنة في الأدب أن تبحث قنوات التأثر والتأثير بين الأداب العالمية والتي أصبح العالم مهيأ لها أكثر، وقد كان هذا واضحاً منذ القديم فقد تأثر الشعر الفارسي بالشعر العربي فأخذ أوزانه قديماً، مثلما تأثر الشعر العربي بالأوربي في العصر الحديث فأخذ بعض إيقاعاته.

لقد أثبتت الدراسات المقارنة تأثر الشعر العربي القديم بالشعر الأوربي والبيئة الأوربية، وسواء كانت هذه الدراسات قديمة (أي قبل أن يظهر الأدب المقارن) أو حديثة، فقد كان من أهم القضايا التي بحثت عن تناول الموشحات والأزجال الأندلسية، تأثرها بلغات الأندلس المحلية، وورود الكثير من المؤشرات على ذلك حتى أن (الخرجه) في الموشح كان من المستحب أن تتضمن ألفاظاً أعجمية، وهذا كثير، كذلك في الأزجال، عدا التأثر بالمناخ والعادات وأساليب الحياة الغربية.

من جهة أخرى درست الآداب المقارنة أثر الأدب العربي في الآداب الأوربية، والتي وجدت من أبرز هذه الآثار ما عرف بشعر التروبادور(5).

ويشار إلى أن الكلمة من جذر عربي طرب + دور، أي إنها تنتمي إلى عالم الغناء كالموشحات والأزجال،وقد درست كثيراً منذ ظهورها في القرن التاسع الميلادي، وهذا المجال من الشعر العربي والأوربي يوضح تأثر الحضارات ببعضها وحوراها الفاعل.

ومن الإشارات إلى تأثر الآداب العالمية بالأدب العربي، ما وضحته دراسة الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي الشهير دانتي من تأثر بقصص المعراج القرآنية،

وخاصة عندما تم إثبات ترجمة بعض هذه القصص إلى اللاتينية قبل ظهور الكوميديا، وهناك إشارات إلى تأثرها برسالة الغفران للمعري، أو محاولات لإثبات ذلك.

ومن هذه الآثار الدور الذي لعبه كتاب ألف ليلة وليلة، الذي لا يزال يدهش القراء في العالم، ويدفع الدارسين للتوقف عنده، وهذا الأثر العالمي كاف لإثبات حوار الحضارات فقد ظهر في الهند ثم ترجم إلى العربية وتبيأ فيها ،وأخذ أبعاده فيها حيث اعتبر كتاباً عربياً، ثم ترجم إلى معظم لغات العالم حاصداً إعجاب واهتمام الناس، من هنا تأتي عالميته ودلالته على الحوار بين الحضارات.

وفي إطار إثبات دور الأدب المقارن في التعرف على الحوار بين الآداب والثقافات بالتالي بين الحضارات. نشير إلى دراسة د.احسان عباس ((ملامح يونانية في الأدب العربي))(6).

والتي يرصد فيها بعض الملامح اليونانية كما ظهرت في الأدب العربي، مؤكداً بذلك ما يزيد على الآثار الفلسفية التي تركتها الفلسفة اليونانية على العقل والفكر العربيين والإسلاميين، منذ بدأ العرب يتعرفون على اليونان حتى فن ما قبل الميلاد، أيام الحضارة أو الثقافة الهلّنستية. يرصد د. عباس أولاً موقف العرب من الشعر اليوناني ومدى معرفتهم به، ويؤكد هذه المعرفة مشيراً إلى أوميروس وأثره عند العرب، وينتقل إلى أثر اليونان في الشخصيات والأمثال العربية، ثم أثر الشعر الخمري اليوناني وترجمته إلى العربية واستخدام الفكر اليوناني السياسي في مادة الرسائل الأدبية، وكيف أن الحكم والأمثال اليونانية تحولت إلى نظم عربي، وأن الشعر استطاع أن يصهر معاني الحكمة اليونانية، وغير ذلك من الأبحاث. ثم يورد ملاحق ترصد الخرافات على ألسنة الحيوانات ويقدم نماذج منها، كما يقدم مراثي الحكماء في الاسكندر.

وإذا كان جهد عباس قد انصب على دراسة الآثار اليونانية في الأدب العربي قديماً، فإن الرصد الدقيق لهذا الأدب في العصر الحديث يؤكد استمرار التأثر بل ازدياده، خاصة في عصر النهضة فما بعد، وتكاد الأسطورة اليونانية تكون من المواد التي درج معظم شعراء العرب على الإفادة منها واستخدامها كرموز، مثل السياب الذي تؤرخ أعماله لبداية الشعر العربي الحديث.

obeikandl.com

كذلك تمت الإفادة من الإرث الأرسطي في مجال النقد الأدبي وتكاد المصطلحات اليونانية كالتراجيديا والكوميديا ونظرية المحاكاة، وما تم استخدامه من مصطلحات في علم النفس كعقدة أوديب والكترا وانيتغونا وغيرها أن تشكل مفاتيح نقدية لمن يعمل في مجال الفكر والأدب والنقد، وهذا يثبت كم كان حوار الحضارات فاعلاً وحاضراً عبر العصور، متجاهلاً ما كان يجري من صدامات على مستويات أخرى وفي حقول أخرى.

مجال الأدب المقارن واسع جداً وهو وحده قادر على إثبات حوار فاعل بين الحضارات، لكننا نكتفي بإثبات وجهة نظرنا من خلال الإشارات المتقدمة.

الأدب والفن ومناهجهما:

هناك قنوات أدبية وفنية تبرز فيها آثار الحضارات وعلاقاتها الحوارية ببعضها، مما لا يقع في مناهج الدراسات المقارنة، وإذا كان الأدب المقارن قد صب اهتمامه على إثبات تأثر الآداب ببعضها وما تركه كل منها في الآخر كما رأينا من تأثر وتأثير بين العربية واليونانية والفارسية وغيرها، فإن هذا الأثر لم يقتصر على أن تنتقل بعض أوزان الشعر العربي مثلاً إلى الفارسي وأن نجد فنوناً فارسية في شعرنا العربي كالدوبيت وغيرها، لقد فتح العصر الحديث المجال واسعاً لإحداث تأثرات ناتجة عن حوار حضاري شمل كل جوانب الحياة بين حضارات عدة، خاصة بين حضارات الشرق والغرب.

لم يكن أدبنا العربي غائباً عن الرواية كمضمون، أقصد الحكاية ذات الموضوع والتي تدور حول حدث، والرواية في العربية كانت من الكلمات المعهودة. لكننا لم نعرف الرواية أو القصة بشروطها الفنية كما قررها النقاد كفن أدبي قبل التواصل مع الأدب الأوربي، وسواء كانت رواية زينب لمحمد حسين هيكل/1914 هي الرواية الفنية الأولى في العربية أو غيرها من روايات فرانسيس مراش أو غيره، فإن هذه كلها لم تكن لتظهر لولا الاحتكاك بالحضارة الغربية واقتباس هذا الشكل الفني وهذا الحقل الأدبي بكل ما نرى له من أبعاد عندنا حالياً.

obeikandi.com

ومع عدم غياب الأشكال المسرحية عن أدبنا وحياتنا العربية فإننا أيضاً لم نعرف المسرحية والمسرح كما هي حقيقة، إلا بعد الاتصال والحوار مع الغرب وحضارته، ولم يكن مارون النقاش الذي قدم المسرحية الأولى في العربية، وهي مسرحية البخيل /1848/ ليقوم بذلك لولم يكن تاجراً أتاحت له ظروف عمله الإطلاع على النشاط المسرحي الأوربي.

ولتقدير أثر هذين الفنين (القصة والمسرحية) في أدبنا وحياتنا الثقافية، والدور الذي لعبه احتكاكنا بالغرب في اقتباسهما، لنا أن نتخيل، خلو أدبنا منهما مثلاً، كم كان ذلك سيبدو شنيعاً ودالاً على البؤس الثقافي؟!

لنا أن نقول ذلك في مجالات أخرى، كالفنون الموسيقية، والفنون التشكيلية،وإذا كانت لدينا فنوننا الشرقية، العربية والإسلامية، سواء في مجال الموسيقى أو التشكيلي، فإننا كنا سنبدو خارج التاريخ وخارج عصورنا تماماً لولا الاعتماد في تطوير هذه الفنون عن طريق دراستها في الغرب وإدخال المناهج الغربية عليها، يضاف إلى ذلك التكنولوجيا الغربية في هذا المجال، كالآلات الموسيقية، المردوفة بالمؤلفات الموسيقية الغربية، كذلك في مجال النحت والرسم وغيرها، فهي في مناهجها، وأدواتها غريبة الطابع، استوردناها لنعبر بواسطتها عن واقعنا وبيآتنا،ولنا أن نتصور أيضاً أننا بدون هذه الموسيقا وهذه الفنون لنقدر حجم التأثر بالغرب وفنونه، عبر حوار حضاري، قلنا سابقاً إنه يعتمد مبدأ سد الفراغ كمبدأ الأواني المستطرقة.

لم نستورد هذه الفنون فقط، بل استوردنا مناهج دراستها والتعاطي معها ونقدها. فالفلسفات والمناهج الكبرى التي ولّدها الغرب الحديث، تحولت إلى مايشبه الإيديولوجيا يعم طيفها الكثير من الحقول، وتطبق في مجالات كثيرة من الحياة، هذا إذا لم تكن أيديولوجيات كاملة كالماركسية التي صنعت حقلها، من السياسة الماركسية، إلى الفن الماركسي والاقتصاد الماركسي... إلخ.وأصبحت المقاييس الماركسية في الأدب والفن والنقد، وهي غربية الطابع - هي أدواتنا ومقاييسنا المعتمدة في تقييم الأعمال الأدبية والفنية، كما أصبحت لدى الكثير من

شعوب العالم، حتى أصبحت الواقعية الاشتراكية هي المسطرة الصارمة التي تقاس بواسطتها الآداب والفنون، وحتى الأخلاق عند بعض النقاد عالمياً.

هنا ومن قبيل تقرير الواقع، نشير إلى أننا وتأثراً بالغرب، أصبحنا منذ زمن غير يسير نعتمد المقاييس الغربية النابعة من مناهج ومذاهب غربية في لحمتها وسداها، ووجدت لتقييم وقياس الأعمال الغربية. فالكلاسيكية مذهب غربي في الأدب والنقد، أصبحنا نقيس به آدابنا وفنوننا وحياتنا، وكذلك مناطق العالم الأخرى، فنقول : أدب كلاسيكي، فن كلاسيكي، موسيقى كلاسيكية، أسلوب كلاسيكي، حتى أصبحت هذه الكلمة (المصطلح) من الكلمات الشعبية التي يعبر بها عن كل تقليدي قديم.

أيضاً نجد مصطلحات مثل الرومانتيه والواقعية والوجودية وغيرها، وهذه كلها مصطلحات بعضها تحول عن فلسفة كالوجودية، نستخدمها نقلاً عن الغرب في توصيف الآداب والفنون، وهي بمقاييسها وضوابطها الصارمة المنقولة عن الغرب، أصبحت مقاييس وضوابط لنا مما يؤكد الأثر الذي يحدثه حوار الحضارات.

هذا يذكرنا بأن المقاييس المعتمدة في حياتنا المادية والمعنوية كلها تعود إلى الغرب، حيث استبدلنا مقاييسنا السابقة بها، فالمتر لقياس الأطوال، والكيلوغرام لقياس الأوزان واللتر لقياس السوائل، وتلاها بعد ذلك مقاييس لما استوردناه من الغرب كالكهرباء والحرارة والرطوبة.... إلخ.

ولا نزال حتى يومنا هذا، وبالرغم من التقدم الذي حصل لدينا في مجال الدراسات الفكرية والفنية، نستورد ما ينتجه الغرب من فنون ومناهج، أوجدها في في الأساس لدراسة فنونه، فنعمد - مهما كان التعسف - إلى تطبيقها في دراسة آدابنا وفنوننا، كما فعل من أخذوا بتطبيق البنيوية من أمثال كمال أبو ديب وغيره، وكما يفعل علي حرب في تطبيقه لمناهج التفكيكية والدعوة إلى تطبيقها في مجال الدراسات الفكرية والفنية والحياة العربية(7). وقد أوضح بعض ذلك د.عبد العزيز حمودة في كتابه ((المرايا المحدبة))(8).

وإذا كنا في القديم، وفي عصر النهضة، وصولاً إلى عصرنا، مضطرين إلى أن نتعاطى مع الأسماء اللامعة في مجال الفكر والثقافة الغربيين نتيجة فقرنا الثقافي،

openkanar.com

مثل: أفلاطون، أرسطو، وغيرهم من فلاسفة اليونان، فإن هذه الضرورة رافقتنا، ووجدنا أنه لا غنى لنا في العصر الحديث عن التعاطي مع أسماء، مثل: ديكارت، كانت، هيجل، ماركس وعشرات غيرهم، ثم استمر ذلك إلى يومنا هذا، حيث لا نحيل إلى مفكرين محليين، بل نحيل إلى أمثال: فوكو، دريدا، بوبر وأمثالهم.

أليس في ذلك دليل على أن هذا الحقل من الحوار بين ثقافتنا وثقافة الغرب لا يزال مفتوحاً وخصباً وفاعلاً، بالنسبة لنا على الأقل، ولا يحق لنا إغلاقه طالما لم نوجد البديل.

إن عشرات الدارسين العرب في الغرب وفي الشرق كادوارد سعيد ومحمد أركون وبرهان غليون وكثير غيرهم، لم يغنونا أن نتزين في دراساتنا بالإحالة إلى الأسماء الغربية اللامعة، مما يدل على أثر حوار الحضارات الواضح في هذا المجال، والمستمر بعيداً عن منطق التبعية أو عن القوي والضعيف، ومن يأخذ ومن يعطي.

لو تركنا الفنون والآداب القديمة أو بصورتها التقليدية جانباً، ونظرنا إلى الفنون الحديثة كالسينما والتلفزيون، لرأينا أنفسنا أمام حقل غربي بالكامل بهويته وفكرته وأدواته ومناهجه وأساليبه، وأننا نجهد مع كثير من الشعوب التي لها الوضع ذاته، لنواكب هذه التطورات، ونثبت أننا قادرون على التعاطي مع ما تستحدثه الحضارة من فنون وقضايا، بالتالي جديرون بالحياة، لكننا نظل في حراكنا عالة على الفكر الغربي وحيثياته. وهذا حوار مع الحضارة الغربية يصل حد الإملاء والفرض علينا، باعتبار أن هذه الحقول جديدة، ولم يكن لها وجود في ثقافتنا، ولو كان لها جذور لسمينا ذلك تطويراً وإغناء، لكن لما لم يكن لدينا ما نطوره، أصبح ذلك نقلاً كاملاً للفن ومجاله، أو أن هذا الفن فرض نفسه علينا فأصبح ذلك كالغزو، ويحلو للكثيرين أن يسموه غزواً. وهو يعود إلى مانشير إليه من حوار بين الحضارات.

الدين

نعود للحديث في أثر الحوارات الحضارية في مجال الدين، ذلك لأن الدين أحد أبرز مكونات ثقافة الشعوب، ويختلف ذلك بين شعب وشعب، ودين ودين، ومنطقة

ومنطقه، ومرحلة وأخرى لكن لا خلاف على الدور البارز للثقافة الدينية كمكون ثقافي له طيف واسع وأثر بارز.

تحدثنا في فصل سابق عن الدين الذي هو في الأساس لا يحتمل إلا الحوار، هذا إذا أخذنا بالمعنى النبيل الذي يجب أن يكون له، بل يجب ألا يفارقة، لأن الدين متى فارقه معنى النبل والرحمة والسلام وتحقيق أحلام الإنسانية في حياة حرة وكريمة فقد مشروعية وجوده ومبرره. ولقد أشرنا إلى أن الله قال عن نفسه إنه غني عن العالمين، إذاً هو لم يرسل الرسل من أجله لغناه عن ذلك، وإنما أرسلهم لتنظيم حياة الناس وجعلها أكثر رقياً ونبلاً ورحمة وأكثر مقدرة أن تعاش دون ضغوط ومشاكل.

من هذا الجانب نرى أن جميع الأديان تتفق في أساس وجودها وفي صلب مبادئها على القيم السامية والدعوة إلى السلام والمحبة والخير، وإلى الوقوف ضد الشر ومحاربته، أياً كان شكله، وأي دين ليس في صلب مبادئه التحزب للخير والدعوة إليه وفعله، ومحاربة الشر والتحزب ضده ونبذه، يفقد كونه ديناً.

هل جاءت الدعوة إلى المبادئ والقيم العليا عفواً، أو أثرت الأديان ببعضها، السابق باللاحق في انتهاج هذا الطريق؟ ليس من السهل أن نثبت أن مبادئ الدعوة إلى الخير ومحاربة الشر كانت اقتباساً من دين لآخر. عبر عملية حوار بين الحضارات أو الثقافات أو الأديان خاصة. فوجود من يدعو إلى الخير في عصر ما وأرض ما، لا يعدم أن يوجد من يدعو إليه في عصر آخر وأرض أخرى وشعب آخر. إنما باستطاعة الباحث في مجال علم الأديان المقارن، أن يشير إلى عناصر جزئية وردت في دينين أو مجموعة أديان، كالاعتماد على حكايات وأخبار وأساطير معينة. فحكاية الطوفان كما رأينا هي أثر انتقل بين الأديان السماوية والثقافات الموجودة في الشرق، وربما كان المصدر هندياً كما سبق وأشرنا. أيضاً حكاية كحكاية الملك سرجون الأكادي التي تشبهها حكاية النبي موسى وكيف نجا كل منها من الموت بوضعه وهو طفل في صندوق على مياه النهر تسير به، وكيف تم التقاطه وتربيته، وكان الخلاص على يديه.

أيضاً حكايات أخرى كالحديث عن أثر أديان سابقة في بعض الشخصيات، كأثر ديانات الكنعانيين في الملك (النبي) سليمان، حيث تحدثت التوراة عن انحرافه إلى ديانة نسائه (زوجاته ومحظياته) الصيدونيات الكنعانيات.

أيضاً يبدو أثر الأديان في حوار الحضارات، في الأشكال التي اعتمدتها للانتشار، فالكثير من هذه الأشكال كان يعتمد التبشير، ولقد رأينا أن رجال الدين المسيحي المتحمسين لنشر المسيحية قد رافقوا رجال الكشوف الجغرافية لهداية الشعوب المكتشفة إلى المسيحية، أيضاً فعل ذلك التجار والدعاة المسلمون، فبعيداً عن الأرض التي وصلتها جيوش الفتح الإسلامي، كان التجار يذهبون ببضائعهم للتجارة والتسوق، وكانوا يحملون معهم بضائع من نوع آخر، إنها مبادئ الدين والعقائد التي يؤمنون بها، وهكذا تم انتشار الدين عبر الحوار بينهم وبين هؤلاء الشعوب التي عرفوها في حراكهم الاقتصادي، خاصة في جنوب شرق آسيا وأفريقيا جنوب الصحراء.

ولقد كان للتحولات والانقسامات الطائفية دور في حماس أبناء الطوائف لنشر مذاهبهم خاصة وأن أغراضاً أخرى داخلت الانقسامات الدينية، وجرت تحولات كبيرة على مسار الأديان، ففي 306 ـ 377م، أي في عهد قسطنطين الذي اعتنق المسيحية وجعلها الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية: ((تحولت الكنيسة من كنيسة يسوع المطلوب إلى كنيسة الله القادر على كل شيء))(9). وهو ما جعل السياسة تفعل في الحديث وجعلته مركباً سهلاً لها، كان له الأثر في الانقسامات الطائفية والحروب.

لقد أصبح رهبان المذاهب والفرق الدينية المسيحية، وأبناء الطوائف الإسلامية أكثر حماساً في العمل على نشر مذاهبهم، وأصبح واحدهم لا يسابق على ذلك أبناء دين آخر بل أبناء طائفة أخرى من دينه. حيث أبرز التاريخ الكثير من التحولات والانقسامات في الأديان، والصراعات الحادة بين الفرق المتشكلة حديثاً وتلك السابقة لها. ولقد جهد المتأخرون لتصحيح بعض النظرات أو المفاهيم لكن دون كبير نتيجة، كما فعل إبراهيم متري رحباني لتصحيح فهم الأمريكيين وبيان

الفهم المسيحي الشرقي المخالف لما هو سائد في أمريكا مما يعد انحرافاً عن المسيحية في منبعها الأول، من خلال كتابه (المسيح السوري) كما ورد سابقاً.

ربما كانت مثل هذه المحاولة في رد فهم الدين إلى الجذور، وهي محاولات تجري في كل الأديان (بعضها وصل إلى ما يعرف حالياً بالأصولية في كل الأديان الإبراهيمية، مع ما في رؤيتها من أصول أو انحرافات) ناتجة عن رؤية الاختلافات التي أبرزها حوار الحضارات أو حوار الطوائف والمذاهب. يقول غارودي: ((ونحن اليوم ندرك أن الجانب الأصيل في المسيحية هو الجانب الشرقي.... فقد أدخلوا إلى (الغرب) مسيحية أفسدتها تماماً الثنائية اليونانية على الصعيد الفكري النظري، وأصابت بنيات الإمبراطورية الرومانية تنظيمها بتحول جذري))(10).

وإلى هذا الحوار المنحرف عن الأصل أو المتفق معه يمكن أن نرد عمل الإرساليات التبشيرية، وهي عمل طائفي تبشيري، تسابقت عليه الطوائف المسيحية الغربية مدعومة من حكومات بلدانها وكنائسها، وقد أقامت المدارس والكليات في كثير من مناطق العالم، والملاحظ في المنطقة العربية أنه تركز في المواقع التي تنتشر فيها المسيحية، بدل أن يركز في مناطق يتم جذبها إلى المسيحية، وهذا يثبت صراع الطوائف المسيحية على تجيير هذا الحوار إلى الحقل الطائفي بدل إبقائه في الحقل الديني.

إن إنشاء المدارس والكليات في بلاد كثيرة من الشرق، من قبل طوائف مسيحية، جعل هذه المدارس ـ على اختلاف في المستوى ـ تقدم الخدمات التعليمية إلى الكثيرين من المسيحيين والمسلمين، والملاحظ أن من تخرجوا من هذه المدارس من المسلمين كانوا أوضح علمانية، وهذه وإن كانت قضية نسبية فإنها تدل على ما يحدثه الحوار بين الحضارات أو الشعوب أو الأديان من آثار واضحة، باعتبار أن المناهج التي كانت تدرسها هذه المدارس هي مناهج غربية الحضارة والفكر، وهناك من يقول إن المبشرين كانوا مقدمات استعمارية.

أخيراً لا نريد أن نكرر ما قدمناه سابقاً، من أن هناك مؤثرات كثيرة، عقدية وعبادية طقوسية، أحدثها الحوار بين الأديان وتجاورها وتساكن وتعايش أبنائها. لكننا نشير إلى أن أكبر أثر قدمه حوار من هذا النوع هو التسامح بينها. يذكر سمير عبده أن أهل لواء اسكندرون من المسيحيين قدموا كنائسهم للمسلمين

يصلون بها الجمعة لأن لجنة للتحقيق في انتماء لواء اسكندرون إلى تركيا أو إلى سوريا، قد قدمت يوم الجمعة، مما دفع الأتراك إلى إغلاق المساجد أمام العرب المسلمين ومنعهم من أداء الصلاة والتظاهر أمام اللجنة الدولية تأكيداً لعروبة اللواء، وكان ذلك عام 1937م(11)

كما أن القس سرجيوس انطلق للمشاركة في مظاهرات ثورة 1919/ من الأزهر، بعد خطبة ألقاها هناك وبدأها بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم. وهذا يشير إلى مناخ التسامح الذي يتيحه ويساعد عليه التساكن الذي يخلق حواراً واسعاً. كما يعتبر التعايش الإسلامي المسيحي في الشرق دليلاً على ما بين المبادئ العقدية من تسامح ورحمة، عكس ما يريد هنتنجتون التدليل عليه.

الترجمة والبعثات العلمية:

لم تتأخر الحضارات في اكتشاف الترجمة كطريق للتواصل والحوار بين الحضارات، ولا شك أن ما أوردناه سابقاً عن العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وما نحن بصدده من العلاقات الثقافية بين الشعوب والحضارات، يوحي بأهمية الترجمة كطريق لابد منه لإتمام هذه العمليات، والتي لا يمكن أن تتم دون تواصل لغوي، ومتى استطاعت اللغات أن تنفتح على بعضها من خلال إتقان أعداد متزايدة من متكلميها لأكثر من لغة، عندها نقول إن قناة هامة جداً لحوار الحضارات قد فتحت، وبازدياد مثل هذا النشاط اللغوي يزداد مفعول وأهمية الحوار.

تتحدث الأخبار عن أن مترجمين عرباً كانوا في بلاط كسرى ملك الفرس، ومن أبرزهم عدي بن زيد، وكان هؤلاء يقومون بتأمين التواصل الضروري بين بلاط كسرى والعرب لكن هذا النشاط شهد قفزة هائلة بعد الإسلام، فقد أصبح المؤمن يتعبد ربه بتلاوة القرآن الذي نزل بالعربية. إذاً كان على هذا الطيف من المؤمنين من غير العرب أن يتعلموا العربية كي يحسن إيمانهم، وهذا يفسر كثرة الذين تميزوا في علوم العربية، وعلوم ذلك العصر المكتوبة بالعربية وهذا يفسر أيضاً الترجمات

obeikandl.com

التي تمت على يد أعلام الفكر والأدب كابن المقفع الذي ترجم كليلة ودمنة وغيره عن الفارسية.

إلا أن حركة الترجمة الواسعة إلى العربية، حصلت منذ عهد المأمون فما بعد، يقال إن رجلاً مهيباً تجلى للمأمون في نومه وأوحى له بأن يستخرج كل ما سبقه من فلسفة وعلوم لينقلها إلى العربية، ولهذا أنشأ المأمون بيت الحكمة 217هـ 832م والذي يعد أبرز مؤسسة علمية شهدها التاريخ العربي الإسلامي على امتداده، وكان في زمن بلوغ الإشعاع الحضاري العربي عصره الذهبي أو الذروة، وكان مترجمو ذلك الزمن من أبرز مفكريه. (12)

إننا من أنصار عقلنة هذه الحركة التي لم تحصل دفعة واحدة بل بالتدريج، ببيان ما اكتشفه العرب أيا مذاك من ضرورة الإطلاع على نتاج الحضارات السابقة خاصة الحضارة اليونانية، وما تنطوي عليه من كنوز، وهذا يبعد التفسيرات اللاعقلانية عن دوافع تطور الترجمة كرؤيا المأمون، الخليفة المفكر.

وأياً كان الهدف والسبيل إلى هذا المشروع (مشروع الترجمة) فإنه قد آتى أكله فتم نقل كنوز اليونان المعرفية وخاصة في مجال الفلسفة، بشكل واسع إلى العربية، وأصبحت أسماء أفلاطون وأرسطو وغيرهم، وكأنهم مفكرون عرب يعيشون بين ظهراني إخوانهم، ومن أبرز المترجمين العرب للتراث اليوناني إلى العربية: يحيى بن عدي وحنين بن اسحق. (13)

إن حركة الترجمة إلى العربية في تلك الحقبة التاريخية قد أنشأت حوارات بين الحضارة العربية والحضارات الأخرى، خاصة اليونانية، بحيث أن توفر كنوز الفلسفة اليونانية باللغة العربية قد وسع نشاط الفكر والمفكرين وأصبح واضحاً في كل ما كتبه المفكرون العرب بعد ذلك أثر الفلسفة اليونانية، كما نرى لدى الفارابي وابن سينا وغيرهم.

وهذا أيضاً ما جعل العربية لغة فكر، أو اللغة الأكثر نشاطاً في هذا المجال بحيث أنه عندما بدأ الغرب يتلمس طريقه إلى النهضة وبدأ يحيي تراثه لم يكن له مناص من التواصل مع العربية والمفكرين العرب الذين توجهم ابن رشد الذي وصل بحركة الفكر العربي إلى المدى الأبعد، بحيث أنه: ((هو الذي سيطر على الفلسفة

المدرسية من خلال أنصاره اللاتين)).(14) وقد((بدأ الرافد الإسلامي وأثره في الفلسفة المدرسية في القرن الثاني عشر بحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية)).(15)

ويعدد د. حسن حنفي مجموعة من أشهر المترجمين الغربيين الذين عملوا على ترجمة التراث الإسلامي إلى اللاتينية ومن أبرزهم: يوحنا الاسباني وريمون السوفيتاتي (اسقف طليطلة) وجون ساليفي(جوند سالينوس) وسليمان اليهودي وابن داود(افنداوث) وجيرار الكريموني.(16)

ويشير غارودي إلى أن سان جان دي لاكروا، اطلع على تصوف المسلمين ودنا منه بعد أن وجده مترجماً إلى اللاتينية في جامعة ((سالامنكا))(17). مما يؤيد انتشار الترجمة التي أصبحت رافداً ثقافياً لأهل الغرب.

إن عملية الترجمة المتبادلة، بين لغتين(حضارتين) أو لغات(حضارات) هي من أبرز أشكال حوار الحضارات هذه، التي تنبه إليها المهتمون بالشأن الفكري والثقافي منذ أقدم العصور.

من هنا ينبع اهتمام الحضارات الناهضة خصوصاً بموضوع الترجمة، حيث تعتبر الطريق الممهد لنشأة وتطور حضارة فاعله. فكل حركة نهوض عبر التاريخ ترافقت بحركة ترجمة نشيطة، دفعت بوشكين إلى القول: ((المترجمون خيول بريد التنوير)). (18)

كما يعتبر البعض ومنهم الباحث عبد الكريم ناصيف أن حركة الترجمة تسبق حركة التأليف وتمهد لها، وتعد المرحلة الانتقالية بين مرحلة الجدب ومرحلة الابداع. (19)

من هذا المنطلق جاء التفكير العربي ابتداء من عصر النهضة بتنشيط حركة الترجمة، عبر تنشسيط حركة التواصل مع الغرب باعتباره صاحب الحضارة الأقوى في هذه المرحلة، وهكذا بدأت البعثات العلمية التي ترسلها الدول منذ عهد محمد علي باشا إلى الغرب، لتتشبع بعقل وفكر وعلم الغرب، ولتكون قادرة على نقل هذه العلوم إلى اللغة الأم وقد رأينا أثر ذلك في نتاج رفاعة الطهطاوي الذي رأس أول بعثة مصرية إلى فرنسا، وكيف كان تأثره بالحضارة الغربية قوياً، وفي كل المجالات كما يخبر كتابه(تخليص الابريز في تلخيص باريز) وكيف أن أسماء

لامعة أخرى على هذا الطريق كعلي مبارك وخير الدين التونسي، أصبحوا مثالاً للتواصل مع الحضارة الغربية عن طريق التعلم في الغرب كأعضاء في بعثات علمية موفده، وهناك أيضاً ما قدمته الارساليات التبشيرية من منح علمية وايفاد إلى أوربا للتعلم فيها خاصة من لبنان يضاف إلى ذلك النشاط التجاري والخاص في التواصل وتعلم اللغات الأوربية، ومن أبرز الاسماء في هذا الجانب، أحمد فارس الشدياق.

وإذا كانت نهضتنا العربية الحديثة قد بدأت في وقت واحد مع النهضة اليابانية كما أشرنا، فإن النهضة اليابانية قد أتت أكلها وأنشأت دولة وحضارة عصرية تنافس الغرب صناعياً، وهي تعتبر أكبر بلد مترجم في العالم، وربما كانت بعض أسباب نهضتها تكمن في ذلك(20)، ويراهن هاشم صالح على أن نهضة العرب المقبلة تتوقف إلى حد كبير على مدى نجاح مشروع الترجمة أو فشله، بالقياس إلى الدور الذي لعبته الترجمة في العصر الكلاسيكي حيث كانت تقع في الصميم من المشروع الحضاري العربي ـ الإسلامي. (21)

وينبه المشرفون على الحركة الثقافية العربية ـ وإن كانوا قد تأخروا ـ إلى أهمية دور الترجمة في إحداث حركة نهوض نحو الأمام بعد ملاحظة الفقر المعرفي في بيئتنا العربية، وهذا الفقر الذي يشير إليه تقرير التنمية الإنسانية لعام 2002 بالإشارة إلى أن العالم العربي يترجم سنوياً ما يقرب من /330/ كتاباً وهو خمس ما تترجمه اليونان، والاجمالي التراكمي للكتب المترجمة منذ عصر المأمون حتى الآن بلغ /10000/ كتاب، وهو ما يوازي تقريباً ما تترجمه اسبانيا في عام واحد.(21)

هذا الواقع البائس للترجمة هو ما يدفع إلى تلمس الطريق إلى تدارك الموضوع وتنشيط حركة الترجمة، فقد أقيمت ندوة في دمشق حول الموضوع برعاية وزارة الثقافة، افتتحتها وزيرة الثقافة ((نجوه قصاب حسن)) بكلمة موحية العنوان ((الترجمة أداة المثاقفة والتفاعل الحضاري)) ويوحي هذا العنوان بمدى ما يتعلق من آمال على الترجمة في تواصل الحضارات وحوارها، وتقول الدكتورة عن دور الترجمة عن العربية إلى الغرب قديماً والترجمة إلى العربية في العصر الحديث: ((وكما ساهمت الترجمات في نهضة الغرب واطلاعه على تلك الكنوز المعرفية،

وساهمت حركة التعريب في نقل معارف الغرب وثقافتهم وعلومهم، وتوسيع آفاق المعرفة في الوطن العربي)). (22)

وإذا كان الثناء على ما حصل من جهود في مجال الترجمة وارداً، فيجب أن لا يجعلنا نغفل عن التقصير الحاصل من قبلنا في هذا المجال وضرورة النهوض بحركة الترجمة عبر دعم هذه الحركة حكومياً وشعبياً وإزالة العقبات والرقابة الصارمة وإفساح حيز أكبر من الحرية والانفتاح، كما يجب ألا ينسينا المشكلات المتوالدة عن حركة الترجمة، خاصة مشاكل المصطلحات.

لقد كانت مشكلة المصطلحات إحدى العقبات التي وجب تذليلها، وهي مشكلة مزمنة، فمنذ القديم لم يستطع العرب تقديم المصطلح بلغتهم فقد ترجمت بعض المصطلحات وبقي الكثير منها يشار إليه بلفظه الأجنبي مثل: تراجيديا وكوميديا وذلك لعدم وجود نشاط مشابه لا في الحياة ولا في الأدب العربيين، أما العصر الحديث فإن سيل المصطلحات متدفق بشكل كبير، والملاحظ أننا استسهالاً لذلك التناول السريع نترك الكثير منها بلفظه الأجنبي في الاستعمال حتى لو كان له مقابل بلغتنا، وهذا يجعل الترجمة منقوصة وبعيدة عن أن تجعل العلوم تتبيأ في بلادنا، وهذا ما دفع وزيرة الثقافة السورية إلى القول: ((لابد... من مجابهة العقبات التي تعترض تلك المهمة المعرفية الحيوية والتي تتمثل في كثرة المصطلحات العلمية والفنية.. التي تزخر بها العلوم والمعارف ومبتكرات التكنولوجيا.... تشكل عقبة كبيرة تواجه المختصين في مجال الترجمة والتعريب)).(23)

إن التحسس لأهمية الترجمة والتعريب في وقتنا الحاضر ناتج عن التقدم التقني وانتشار وسائل الاتصال وضرورة تبادل الخطاب الثقافي والإعلامي والسياسي بين الأمم.(24)

وهذا يشير إلى أهمية الانتشار اللغوي وضرورة تعلم لغات الشعوب خاصة تلك التي لها حضور كبير في مجال التكنولوجيا، التي دفعت بعض اللغات العالمية كالإنكليزية إلى انتشار يعم الكرة الأرضية لضرورة تعلمها في حقول الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . (25) وقد أصبح شكلاً من أشكال الأمية عدم إتقان لغة أو لغات أجنبية، كما أصبح أحد أشكال الأمية المعرفية والتقنية الغياب عن عالم المعلوماتية في عصر تدفق المعلومات.

هكذا تبرز الترجمة كقناة من أهم قنوات الحوار بين الحضارات، وتدفع رأي من يقول إن لغة الحضارات هي الصدام دون غيره.

الاستشراق والاستغراب:

ليس الهدف هنا دراسة الاستشراق، فقد تمت دراسته من قبل أعلام الفكر والثقافة العرب، مثلما فعل د. محمد أركون وآخرين في كتاب بعنوان ((الاستشراق بين دعاته ومعارضيه)) وكذلك تناوله في كتاب آخر له بعنوان((تاريخية الفكر العربي الإسلامي))، كما درسه المفكر د. ادوارد سعيد في كتابه الشهير((الاستشراق))، والذي أثار ولا يزال مناقشات بين المهتمين بالموضوع في الشرق والغرب، وذلك لما في الكتاب من آراء، ولجرأة وشهرة صاحبه الفكرية، ونحن نهدف إلى الإشارة لدور الاستشراق الكبير في إحداث شكل من أشكال الحوار بين الحضارات.

الاستشراق من ((المستشرق)) أي المنشغل بدراسة الشرق، وهو شبكة معقدة من الصور عن الشرق(26)، وهو يهدف إلى معرفة الآخر عن طريق الحوار مع منظوماته الثقافية وقيمه الحضارية والحياتية.

والاستشراق منظم ومرتبط بمؤسسات دينية أو سياسية، وكلها ذات أهداف تريد المعرفة لتوظيفها في خدمة نفوذها وسيطرتها أو انتشارها، ونابليون كان يقنع الناس بأنه كان يقاتل من أجل مصلحة الإسلام لا ضده، وقد استخدم كل المعرفة المتاحة عن القرآن والمجتمع الإسلامي التي كان بإمكان الباحثين الفرنسيين الحصول عليها، وهذا برهان على نحو شامل على السلطة الاستراتيجية والتكتيكية للمعرفة.

وقد أعطى تعليمات لنائبه كليبر عند مغادرته مصر بأن يدير البلاد عبر المستشرقين ورجال الدين الإسلامي. (27)

بعد دراسة ادوارد سعيد للاستشراق كشف عن غايتين الأولى معرفة العالم المستعمر والثانية هي السيطرة عليه. (28) ويرى مؤلفا كتاب ((ادوارد سعيد ـ مفارقة الهوية)) أن كتاب((الاستشراق، إذن، يدور على برهنة الترابط بين المعرفة

والسلطة ذلك لأن خطاب الاستشراق ينشئ ويهيمن على الشرقيين في عملية ((معرفة)) هم)).(29)

لقد شملت دراسات المستشرقين معظم جوانب الحياة في مجتمعات وبلدان الشرق وفي تراث هذه البلدان، ويقال إن عدد الكتب التي صنفها المستشرقون بين عامي 1800 ـ 1950م قد بلغ أكثر من ستين ألف كتاب تبحث في الشرق الأوسط وحده، حسب المعلومات التي أوردها ادوارد سعيد، وهذا يبرز الدور المعرفي الكبير لحركة الاستشراق بعيداً عما أثير حولها من شكوك واتهامات، ولا شك أن هناك دراسات استشراقية ومستشرقين منصفين، كما أن هناك دراسات مغرضة.

ويؤكد د. نصرحامد أبو زيد أن الاستشراق ـ وهو شكل من أشكال حوار الحضارات ـ كان خطاباً رديفاً للهجمة الاستعمارية على الوطن العربي، يقول: ((وهناك أسباب كثيرة تقف وراء محاولات التمييز بين (الإسلام) والمسلمين، أو على الأصح التمييز بين (الديني) و(الدنيوي) لعل أقرب هذه الأسباب زمانياً ضغط الهجمة الاستعمارية الشرسة ضد العالم الإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وهي هجمة ما زالت توابعها مستمرة في الوجود الصهيوني في فلسطين. تزامن مع الاحتلال العسكري والسيطرة السياسية والاقتصادية خطاب عربي سياسي ـ أكاديمي فيما عرف بظاهرة (الاستشراق) فحواه أن (الإسلام) هو العقبة الرئيسية التي تعوق المجتمعات الإسلامية عن تحديث أنفسها كما فعلت أوربا)).(30)

وواضح أن الكلام السابق يدخل في مناخ الصدام وليس الحوار بين الحضارات، خاصة عندما تبرز المعرفة وكأنها تقوم بدور التمهيد للغزو، وهذا يشكل أيضاً محور ما أراد ادوارد سعيد قوله، واتفاق هؤلاء المفكرين على الدور الاستعماري للمعرفة التي توخاها الاستشراق لا ينفي أن الاستشراق كان حواراً بين حضارات لأن الحوار ليس مرهوناً بالنتائج الايجابية التي تتمحض عنه، علماً أن هناك من لايوافق على رؤية الاستشراق أنه كان ذا أهداف استعمارية بحتة، وإذا كان المستعمرون قد أفادوا منه فإن ذلك يأتي على هامشه وليس في صلب أهدافه. وهناك من يرد الهجوم الذي يستهدف الاستشراق من هذه الزاوية، يقول فرد

هاليداي: ((أرفض من جانب أول، الرسالة الأدبية والقومية المعادية التي يبديها بعض الكتاب العرب تجاه (الاستشراق) وأرفض من جانب ثانٍ موقف صموئيل هنتنجتون الذي يقود إلى النتيجة ذاتها بهذا القدر أو ذاك)).(31)

وهناك الكثير من الدراسات التي كانت محل تقدير من قبل العرب، وضعها مستشرقون في بعض جوانب الحياة العربية أو التراث العربي، فقد وضع المستشرق ((مونتغمري وات)) كتاباً بعنوان: الفكر السياسي الإسلامي، كما وضعت المستشرقة ((آن لامبتون)) بحثاً بعنوان : الفكر السياسي عند المسلمين. وكلا المستشرقين اهتم بدراسة مصنفات الآداب السلطانية والفكر السياسي الإسلامي بشكل عام لدى المؤلفين المسلمين القدامى، كما ناقشوا أعمال من سبقهم من المستشرقين الذين كتبوا في الموضوع ذاته،وقد أشار المستشرقون إلى إطلاعهم الوثيق على التراث الفارسي والتقاليد الاسلامية. (32)

وإذا كان كتاب ادوارد سعيد عن الاستشراق قد أثار الكثير من المواقف والانتقادات، فإن أحد هذه الانتقادات التي وجهت كانت حول إهمال سعيد للاستشراق غير الموظف استعمارياً: ((إنه يحذف إلى حد كبير المدرسة الألمانية للمستشرقين وتأثيرهم المهم في هذا المجال، لأن ألمانيا لم تكن قوة استعمارية ذات سلطة كبيرة في الشرق، ويفشل في ذكر الشعور القوي بين الكثير من الباحثين الاستشراقيين الذي ينص على أن الثقافات الشرقية كانت إلى حد ما أكثر تفوقاً من الثقافة الغربية)). (33)

أياً كانت المواقف أو الاتهامات والردود والمناقشات، فإننا في مجال حوار الحضارات يصعب علينا ان نتجاوز حركة الاستشراق وما قدمته ثم نقول إن الحضارات تتحاور أو لا، ومن الصعب في هذا المجال نسيان أسماء كثيرة في عالم الاستشراق كهاملتون جب وبروكلمان ونولدكه وغيرهم، ولكننا فيما يبدو نحتاج إلى ما يسميه ادوارد سعيد ((القراءة الطباقية)) في كتابه ((الثقافة والامبريالية)).(34) في مجال حوار الحضارات أو الثقافات، وهي قراءة تمنح الحضور لأولئك الغياب، أو نمط من القراءة وإعادة القراءة للأعمال الإمبريالية من زاوية نظر المستعمر. (35)

Openkanal.com

من غير الممكن أن تستكمل الصورة من خلال الإشارة إلى حركة الغرب في سعيه للتعرف على الشرق وحضاراته واهتماماته بهذا الموضوع الذي ولد كل هذه الحركة الاشكالية ((الاستشراق)) ولكي تكتمل هذه الصورة لا بد من التعرف أو الإشارة إلى الخطوات المقابلة التي خطاها العرب أو الشرق للتعرف على الغرب وهو ما يطلق عليه ((الاستغراب)) كشكل من أشكال الرد.

لقد كانت حركة التعرف على الغرب وفهم حضارته خشبة الخلاص كما تم تصورها بعد عصر النهضة ولا نريد الدخول في جدل الآراء المرافقة أو الرافضة لهذه العلاقة، لكننا نشير إلى أن حركة العرب في التعرف على الغرب قطعت أشواطاً وهي تحتاج إلى المزيد لإنجاح حوار حقيقي بين حضارتين أو حضارات، ويعتبر د. حسن حنفي من أكثر المتحمسين لزيادة المعرفة بالغرب، ويبدو ذلك من خلال كتابه ((مقدمة في عالم الاستغراب)) فهو يشير إلى الاستغراب بقوله : ((الاستغراب هو الوجه المقابل والنقيض من ((الاستشراق))، فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا (الشرق) من خلال الآخر (الغرب) يهدف (علم الاستغراب) إذن إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل بين مركب النقص عند الأنا ومركب العظمة عند الآخر)). (36)

إذن الاستغراب هو عودة لتبادل الأدوار، أي أن نقوم بدور مشابه للدور الذي قام به الغرب تجاهنا، وهذا يعني توجيه الحوار بين الحضارات ليأخذ أبعاداً جديدة، وأن ننظر من زوايا جديدة، وهذا ولا شك يقدم خدمات جلى للحوار فيضعه على الطريق الصحيح بحيث يكون متبادلاً أكثر، ويكون كل طرف محاوراً للطرف الآخر بالفعالية ذاتها، يتابع حنفي: ((فالاستشراق القديم يعني رؤية الأنا اللاأوربي للآخر الأوربي، علاقة الذات الدارس بالموضوع المدروس .. أما الاستغراب فقد انقلبت الموازين، وتبدلت الأدوار، فأصبح الأنا الأوربي الدارس بالأمس هو الموضوع المدروس اليوم كما أصبح الآخر اللاأوربي المدروس بالأمس هو الذات الدارس اليوم)). (37)

إن رد الاعتبار للشرق وتبادل الأدوار بين الدارس والمدروس لا يعطي علم الاستغراب الاستقلالية في نظرته وتوجهه ومناهجه وهدفه، بل إن رائحة الثأرية

تشتم منه، وربما يرى الشرقي أن ذلك من حقه، يقول حنفي : ((مهمة عالم الاستغراب هو القضاء على المركزية الأوربية)) وليس صناعة مركزية مقابلة، و((رد ثقافة الغرب إلى حدوده الطبيعية)). (38) وذلك لأن الغرب قد تخطى حدوده بشكل واسع وهو متهم بالعدوان على الشرق بكل الأشكال وعلى كافة الأصعدة والمستويات.

والملاحظ أن حنفي يرى أن الاستغراب ليس جديداً، أو بالأحرى فقد كان موجوداً من يوم اتصلت الحضارة العربية الإسلامية بالفكر اليوناني: ((تمتد جذور الاستغراب إذن في نموذجه القديم في علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارة اليونانية)). (39)

إذن لكل حضارة تحركاتها الهادفة إلى التعرف على الآخر المجاور أو البعيد المتقدم عليها أو المتخلف عنها، العدو أو الصديق، وهذه الحركة تسمى تغريباً أو تشريقاً حسب موقع الدارس والمدروس، فقد كان للعرب استشراقهم القديم ولهذا الاستشراق مظاهر وشواهد منها:

- دراسة البيروني عن ديانات الهند ((أبو الريحان البيروني ـ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة)).

ـ دراسة ابن مسكويه عن حكمة فارس ((ابن مسكويه ـ حكمة فارس (جاويد خرد))) . (40)

هكذا نعود إلى مقولتنا حول التمدد الحضاري، أو سد الفراغ، وكيف تنتشر الحضارة الأقوى ويبرز تأثيرها على غيرها، وفي هذا المجال فإن الدراسات التي يذكرها حنفي في مجال الاستشراق العربي القديم ليس سوى غيض من فيض في هذا المجال، بدأ مع عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وتتابع عبر القرون.

ويمكن أن نعد من أشكال الاستغراب هذا العدد الكبير من المفكرين والأساتذة والدارسين العرب والإسلاميين في جامعات الغرب ومعاهده، والكثير منهم من أعلام الثقافة في العالم، وهم يسهمون بجهودهم في حوار الحضارات الشرقية التي ينتمون إليها مع حضارات البلدان التي يتواجدون فيها، خاصة أولئك الناشطون في مجال الدراسات الإنسانية مثل: ادوارد سعيد، محمد أركون، برهان

غليون، وغيرهم كثير، وكلهم يجعل الحوار يتجلى في تطبيق المناهج الغربية الحديثة على دراسة الحضارة الإسلامية، وهؤلاء الذين نسميهم العقول المهاجرة خير من يمثل الحوار بين الحضارات والثقافات والشعوب، خاصة إذا كانوا يعملون في أرقى البرامج العلمية الغربية، كغزو الفضاء أو الذرة أو المعلوماتية وغير ذلك.

لقد قام الكثير من العرب بدراسة الغرب و أحوال الغرب، فالدكتور عبد الرزاق عيد يشير إلى قول توفيق يوسف عواد عن كتاب ((حريات في الغرب)) لسليم خياطة، إنه ((يدرس الغرب بعد أن درس الشرق مئات الغربيين)) . (41)

وإذا كان الاستشراق أو الاستغراب يأخذ شكل الدراسات البحثية الفكرية أو العلمية، فإن هناك استغراباً أخذ أشكالاً أخرى، خاصة الشكل الأدبي، فكثيرون هم الذين أبدعوا أعمالاً أدبية وفنية بعد حياة طويلة أو قصيرة في الغرب، واستوحوا هذه الأعمال من خلال علاقتهم بهذا الغرب، وهي أعمال تفيض بوصف الغرب والتعرف عليه، صحيح أن ذلك كان بلغة الأدب وبهدف الإمتاع، لكن الجانب المعرفي فيها والدقيق حول الغرب وتكوينه وظروفه واضح في هذه الأعمال.

ومن أمثلتها ((عصفور من الشرق)) لتوفيق الحكيم، ((الحي اللاتيني)) لسهيل أدريس ، ((موسم الهجرة إلى الشمال)) للطيب صالح، والكثير الكثير غيرها، خاصة في مجال السينما والتلفزيون. وهذه تقدم معرفة بالغرب ومناخاته الاجتماعية وعلاقاته وظروف حياة أبناءه وعلاقته بالآخر، ويمكن أن تقدم رفداً لحوار الحضارات الذي تعددت أشكاله وقنواته، ولم يتوقف عند آراء المفكرين ولا خطط السياسيين والمنظرين الاستراتيجيين، وهو لا يخضع لضابط صارم، بل ينبثق حيث تتوفر ظروف ملائمة لأي شكل أو مستوى من الحوار، مخلفاً الصدام للمصالح والأطماع.

❖ ❖ ❖

هوامش الفصل الرابع

1. د. عبدة عبود، الأدب وحوار الحضارات، مجلة المعرفة السورية، السنة/41/ العدد /473/ سباط 2003 ص.32

2. المرجع السابق.

3. المرجع السابق.

4. روجيه غارودي، حوار الحضارات، مرجع سابق ص128 ومابعد.

5. يشير إلى ذلك د. أمين أسبر، الحوار في الحضارة العربية الاسلامية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 /2003 ص.236

6. د. احسان عباس، ملامح يونانية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت/.1977

7. راجع بعض كتب علي حرب، مثل: العالم ومأزقه، حديث النهايات، الأختام الأصولية والشعائر التقدمية، الممنوع والممتنع... وغيرها.

8. انظر، عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة: عالم المعرفة./232/نيسان/.1998

9. د. عبد الله إبراهيم، المركزية الأوربية، مرجع سابق، ص.31

10. روجيه غارودي، حوار الحضارات، مرجع سابق ص.35

11. سمير عبدة، المسيحيون السوريون خلال ألفي عام، دار علاء الدين، ط1/2000 ص.108

12. د. تغريد نصر أحمد، تعريب التعليم الجامعي، عالم الفكر، مجلد/28/ عدد/3/ يناير ـ مارس/2000 ص.193

13. د. حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط1/1992 ص.151

14. المرجع السابق ص.150

obeikandl.com

15. المرجع السابق ص.151
16. المرجع السابق ص.151
17. روجيه غارودي، المرجع السابق ص.36
18. د.تغريد نصر أحمد، المرجع السابق ص.195
19. المرجع السابق ص.195
20. د.هاشم صالح، من مقدمة ترجمته لكتاب د. محمد أركون: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، دار الساقي، ط1/1995 ص.2
21. تقرير التنمية الإنسانية/2002 الصادر عن هيئة الأمم المتحدة ص.90
22. د.نجوى قصاب حسن، مجلة المعرفة السورية، السنة/41/ العدد/473/ شباط/2003 ص.7
23. المرجع السابق ص.7
24. المرجع السابق ص7.
25. راجع، صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق، ص98.
26. بيل آشكروفت وبال أهلواليا، ادوارد سعيد، مفارقة الهوية، ترجمة: سهيل نجم، مراجعة: د. حيدر سعيد، نينوى للدراسات والنشر+الكتاب العربي، ط1/2000 ـ 2002 ص.81
27. المرجع السابق ص86.
28. المرجع السابق ص69.
29. المرجع السابق ص75.
30. د.نصر حامد أبو زيد، تجديد الخطاب الديني ضرورة معرفية وليس استجابة لاستحقاقات 11 سبتمبر، جريدة الزمان 11 و 12/9/.2002
31. فردهاليداي، صدام الحضارات أو حين يلتقي هنتنجتون مع غلاة القوميين، نص محاضرة ألقاها بالفرنسية في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، ترجمة: مرام المصري ونشرت في العدد الرابع 1988 من مجلة internationales etuoes
32. د.كمال عبد اللطيف، في تشريح أصول الاستبداد، قراءة في نظام الآداب السلطانية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ط1/1999 ص31.

33. بيل آشكروفت وبال أهلواليا، المرجع السابق ص98.

34. راجع مقدمة المترجم د.كمال أبو ديب، لكتاب الثقافة والامبريالية، لادوارد سعيد، دار الآداب بيروت، ط1/1997 ص20.

35. بيل آشكروفت وبال أهلواليا، المرجع السابق ص128.

36. د.حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، مرجع سابق ص23.

37. المرجع السابق ص24.

38. المرجع السابق ص28.

39. المرجع السابق ص44.

40. المرجع السابق ص45.

41. د. عبد الرزاق عيد، الثقافة الوطنية/الحداثة. اشكالية الهوية/ مرجع سابق ص97.

❖❖❖

obeikandl.com